

هيئة التحرير | Editorial Board

عرض كتاب:

الاستشراف: فنّ وعلم استباق المستقبل

Book Review:

Foresight: The art and science of anticipating the future

المؤلف: دونيس لوفريديج Denis Loveridge

الكتاب: الاستشراف: فنّ وعلم استباق المستقبل

العنوان الأصلي (بالإنكليزية): Foresight: The art and science of anticipating the future

الناشر: روتليديج - نيويورك ولندن

سنة النشر: 2009

عدد الصفحات: 299 صفحة

بادئ ذي بدء، قد يكون من المفيد، من أجل فهم أوسع لمنظور هذا الكتاب، النظر في المسار المهني لصاحبه، دينيس لوفريدج. فقد اشتغل لوفريدج لمدة طويلة محلاً كيميائياً، قبل أن يعمل في صناعة الزجاج، لينتقل عقب ذلك إلى التخطيط ومنه إلى ما أصبح يُعرف لاحقاً باسم الاستشراف. وفي هذا الصدد، انصبت أبحاث لوفريدج منذ أواخر سبعينيات القرن الماضي على دراسة التحديات الكبرى التي تمثلها الحالات المعقدة الناجمة عن تشبيك موضوعاتٍ متعدّدة (المجتمع، العلوم والتكنولوجيا، الاقتصاد، البيئة، السياسة، القِيم)، وهي ما يسميها الكاتب "المنظومة الاجتماعية-التكنولوجية-الاقتصادية-البيئية-السياسية-القيمية" (STEEPV). والأمثلة الأشهر التي يضرها الكاتب على هذه التطورات في الآونة الأخيرة هي بالأساس بروز مجتمعات المعرفة، والاستدامة والتنمية المستدامة، والتطبيقات الفائقة للتكنولوجيا (تكنولوجيا النانو، التكنولوجيا الحيوية، الذكاء الاصطناعي وغيرها).

ومن ثم، يتأتى اهتمام لوفريدج، وباتساقٍ مع خلفيته المهنية الوضعية هذه، بالنظم وأهميتها بالنسبة إلى التفكير والفعل الاستشرافي. ولذا نجدّه يكتب مثلاً: "إذا كان ثمة تداخل بين الاستشراف والتفكير النظمي، فلا يوجد موضع أفضل للنظر فيه من كتابات هيربرت جورج ويلز، وألدوس هكسلي، وفانيفار بوش، وجون فون نيومان، وريتشارد فاينمان، وإريك دريكسلر، وهانز مورافيك، وراي كورزويل والعديد من الكتاب الآخرين. وبالمثل، ينتج كلُّ تحوّلٍ بارادايمي رئيس (مفهوم توماس كون 1962)، أيّاً كان مجاله وأياً كانت النظرية الجديدة المترتبة عنه، عن الاستشراف، أي عن فعل الاستباق" (ص 17).

وينقسم هذا الكتاب الذي بين أيدينا إلى جزأين، يتناول أولهما علاقة الاستشراف بنظرية النظم، ويعرض لأهمّ المفاهيم المتعلقة بـ "نظرية" الاستشراف و"ممارسته"؛ أما الجزء الثاني فيسعى إلى توضيف هذا التنظير النظري لبلورة منظورٍ أوسع (الاستدامة) وعلى مدى أطول (2030، 2050، وما وراء ذلك). ومن ثم، أحد أهمّ أهداف هذا الكتاب هو الربط بين التفكير بشأن النظم والتفكير الاستشرافي، وهو ما يصل بنا وفقاً للكتاب إلى أبعد من مجرد الفعل المعقّد للتخطيط القائم على السيناريوهات (ص xi).

ويستهلّ لوفريدج الفصل الأوّل من الكتاب (الاستشراف والتفكير النظمي) ببعض التوضيحات المفاهيمية، وفي مقدّمها مفهوم "الاستشراف"، مميّزاً في هذا الصدد بين الاستشراف على المستوى الفردي أو على مستوى الجماعة الصغيرة (foresight)، والاستشراف الإجرائي النظامي الذي غالباً ما يرتبط بمستوى مؤسّساتي و/ أو قومي (Foresight) (ص 12). ثمّ يعرض لمفهوم "التفكير النظمي" الذي يتحدّى التفكير "الاختزالي" الذي هيمن على العِلْمِ لأمدٍ طويلٍ وبطرق عدّة (ص 15)، ومن ثمّ تفضيل الباحث لموشور "الوضعيات" وليس "المشكلات" للنظر إلى الفعل الاستشرافي، بوصفها نُظْمٌ موسومة بـ "التفاعل المنتظم والمترابط" بآثار رجعية لمجموعةٍ من العناصر تشكّل كلاً واحداً" (ص 16). كما يعرض مفهوم "التقدير" الذي يعتبره مركزياً، من منطلق أنّ كلاً من الاستشراف والتفكير النظمي يتأثران بالصفات السلوكية للأطراف الفاعلة (ص 23)، ومن ثمّ أهميته بالنسبة إلى كلٍّ من مهارات "التعلّم" و"الاستباق"، وليخلص

إلى أن التفاعل الدائري وذا الآثار الرجعية (تقدير ↔ تعلم ↔ استباق) يمثل أساس "الاستشراف" (ص 24).

ويتناول الفصل الثاني (الاستشراف والنظم: الإستمولوجيا والنظرية) الجانب النظري للاستشراف، معتبراً منذ البداية أن الاستشراف "لن يغيّر من الأمر كثيراً نسبةً إلى ما يحدث فعلاً في العالم الحقيقي" (ص 38)، في حين يعرض الفصل الثالث لمضامين "الاستشراف المؤسسي" (ص 79)، بالإضافة إلى ملحقٍ طويلٍ وثريٍّ بشأن تطبيق هذا الإطار على مستوى ممارسات استشرافية قومية (ص 104). وأمّا الفصل الرابع (الاستشراف في الصناعة)، فهو بالتأكيد من أغنى فصول هذا الكتاب بحكم التجربة المهنية الثرية لصاحبه لما ينيف عن 40 عامًا في مجال الأعمال والبحوث الصناعية، وهو مثيرٌ للاهتمام على وجه الخصوص بالنسبة إلى القارئ القادم من خارج قطاع الأعمال والصناعة. ويتعرّض الكاتب هنا من منطلق خلفيته المهنية المتينة إلى أهمية الاستشراف في المجال الصناعي وتطبيقاته العديدة، بما فيها ما يسميه "جمع المعلومات الاستخباراتية" (Intelligence gathering) (ص 125)، و"المسح البيئي" (Environmental scanning) (ص 128). وأخيراً، يروم الفصل الخامس تعميم النتائج التي جرى الوصول إليها سلفاً من خلال استنباط مجموعة من "أجود الممارسات" (Best practices) بالنسبة إلى مجموع مكونات المنظومة (STEEP) المشار إليها أعلاه.

بعد هذه النقاشات الغنية والمستفيضة، تنبؤ الاستدامة مكانةً مركزيةً في الجزء الثاني من الكتاب، ممهّداً لمعالجتها بعرض واسع لطريقة السيناريوهات (الفصل السادس)، بوصفها بالأساس عملية تعلم (ص 158)، وموجّزا إياها في طريقة لتصميم السيناريو من تسع خطوات (ص 159)، ومنتقداً لها على الخصوص في ما يتعلق بمسألة "القيّم والمعايير" التي تقوم عليها (ص 167). أمّا الفصل السابع (العالم المُستدام)، فيتضمّن قدرًا وافراً من المعلومات والمقاربات الثرية، واصفاً المشاكل أو المشاريع السهلة الانقياد نحو التفكير الاختزالي في "حلّ محدّد" أو "نقطة نهاية" بأنها عوضاً من ذلك "شلاّلات دينامية لوضعية مترابطة بيئياً... تنشأ من العلاقات المتبادلة بين العالمين البشري والطبيعي، يجري فيها الاعتراف بالاعتماد المطلق للعالم البشري على العالم الطبيعي والعمل على أساس ذلك" (ص 203)؛ بمعنى أن العقل البشري لا يمكنه ببساطة التعامل مع مستوى تعقيد العالم الطبيعي (ص 211). ومن ثمّ، يجري تقديم نموذج عن هذا التعقيد في ملحقٍ يعرض مفهوم العلاقات المتبادلة في مجال الاستدامة (ص 221). وأخيراً وليس آخراً، تجري الإشارة إلى تزايد درجة تعقيد المنظومة (STEEP) في المستقبل، لا سيّما بالنظر إلى الإسقاطات السكانية في أفق 2030، ثمّ في أفق 2050.

وفي الختام، ينبغي التنويه إلى أنه ليس من اليسير على الإطلاق الولوج إلى هذا الكتاب، وذلك بسبب لغته المتخصصة وصوغه الفائق الكثافة، وأسلوبه البلاغي الصارم. بيد أن القارئ، متى أدّى "التكلفة

الثابتة" لتفكيك هذا الاستصعاب الاستهلاكي وتذليل هذه العقبات الأولية، فإنه يجد نفسه أمام فيض هائل من المعلومات والتشبيكات لمجالات عادة ما تجري مقاربتها عبر مناهج اختزالية. ما نحن بصده هنا ليس إحدًا مجرد محاولة لتعزير الدراسات الاستشرافية، بقدر ما هو تعليق آمال واسعة على آفاق إنسانية أبلغ من الأدوات والمعارف التي بين أيدينا.

وبالعودة إلى الغرض الرئيس من الكتاب، لا يسعنا سوى الاتفاق على أن نمط "التفكير النظمي" الذي يدافع عنه دينيس لوفريديج يمكنه من حيث المبدأ المساهمة في ترسيخ العمل الاستشرافي وتطويره. فعندما يجري استخدامه بشكل مناسب، فإنه يضيف الاتساق والدقة في هذه العملية. ويقدم المؤلف مجموعة من الاقتراحات التي توفر جميعها مادة غنية للنقاش، وذلك للتعجيل بتنفيذ هذا الربط بين "الاستشراف" و"التفكير النظمي".